شهرية الفلسفة

النحلة الأورفية

ظهرت النحلة الأورفية فى اليونان فأثرت فى الدين والفلسفة والحياة الاجتماعية أثراً عظيما ، وتسربت عقائدها وطقوسها إلى العالم المسيحى حتى اليوم .

وتنسب هذه النحلة إلى أورفيوس الذى عاش فى تراقيا قبل العصر الهومرى . ويعتقد أرسطو أنه كان شخصية خرافية ليس لها وجود . غير أن سائر القدماء يؤكدون وجوده ، فيذهب هيرودت إلى أنه جاء بعد هوميروس .

وأول إشارة إلى أورفيوس فى الأدب القديم مقطوعة بعنوان « أورفيوس الشهير » للشاعر إيبقوس فى القرن السادس قبل الميلاد .

ويقال إنه ولد فى ليبثرا من أعمال بيريا ، وهى جهة محيطة بجبل أولمبوس . وكانت هذه الجهة فى القديم جزءاً من مقدونيا إلا أن أصلها من تراقيا . ولم يكن أهل تراقيا فى العصور المتأخرة يعدون من صميم الاغريق ، ولهذا السبب لم يعدوا أورفيوس إغريقيا . ومما يؤيد هذا الرأى النقوش التى تمثل أورفيوس ، وفيها نجد ملابس أورفيوس إغريقية ، وفى بعض النقوش الموجودة على آنية خزفية أن هيئته إغريقية والمستمعين له من أهل تراقيا .

ونسبه إلهى : فأمه إلهة الشعر الغنائى كاليوب ، وأبوه أبولون فى رواية ، وفى رواية أخرى أنه أوجروس إله الخمر فى تراقيا .

ولسنا نعرف عن حياته إلا ما تذكره الأساطير .

ويروى أنه رحل إلى مصر يطلب العلم . ويقال إنه ركب البحر مع بحارة السفينة « أرجو » حسب طلبهم ، فاشتغل فيها رباناً وموسيقيا وواعظاً دينيا . وقد ذكر هذه القصة بندار فى أشعاره ، وصوره أوريبدس فى تمثيلية تدور قصتها حول رحلة بحارة أرجو .

ونجد فى أسطورة أخرى قصة نزوله إلى الأرض أو العالم السفلى ، يشجى الآلهة فى هذا العالم بموسيقاه ، ويطلق سراح زوجته . ويختلفون فى وفاته : يذهب بوزانياس المؤرخ اليونانى أنه انتحر . ويقول آخرون إنه صعقه الرعد . والشائع أن الميناديات أتباع وعباد ديونيسوس ، مزقنه إرباً إرباً لأنه عبد أبولون .

ودفن فى ديون من أعمال مقدونيا ، ويزعم بوزانياس أنه شاهد قبره .

كانوا يعدون أورفيوس فى الزمن القديم مغنياً صاحب صوت حلو جميل ، تنقاد لأنغامه وموسيقاه جميع الكائنات كأنها واقعة تحت تأثير السحر ، ويستطيع أن يستأنس الوحوش الضارية فى هذا العالم ، والقوى المخيفة فى العالم الآخر . وهو عندهم المعلم بل الرسول الذى يكشف الأسرار ويفسرها : مثل أصل الآلهة وطبيعتها ، والطريق المستقيم الموصل إليها ، والسلوك الذى يجب على

الناس اتباعه فى الدنيا والآخرة ، والقواعد التى تجرى عليها النفس لتبلغ مقرها الصحيح .

وإذا كان قد اعتنق دين ديونيسوس ، وهو دين جاء إلى تراقيا من آسيا ، فقد حوره ليلائم الروح الاغريقى ، فهذب مبادئه الصارمة ، وجعل منه أداة لتأديب النفس وهدايتها . ويظن بعض المؤرخين أن قصة مقتله على أيدى الميناديات تبين مدى ما كان يقاسيه من معارضة المظاهر المتطرفة فى ديانة الخمر . وانتهى الأمر إلى قبول الاغريق التأليف الذى أحدثه ؛ إذ وفق بين أبولون وديونيسوس ، إله الشعر وإله الخمر ، بين الألحان والحان ، كما نجد فى دلفى .

غير أن تعاليمه النظرية كانت غامضة ، وطقوسه معقدة ، فلم يظفر إلا بعدد قليل من الأتباع سموا أنفسهم الأورفيين ، وهم شيعة اتخذو ديونيسوس إلهاً عبدوه على طريقتهم الخاصة .

واتخذوا نقباء يقومون بطقوس الطهارة لمن يريد ذلك . وبقى نفوذ هؤلاء النقباء سائداً حتى القرن الرابع قبل الميلاد . فنحن نجد ثاوفراسطس زعيم مدرسة المشائين بعد أرسطو ، يرسل إليهم « الرجل المتطير » هو وزوجته وأبناءه مرة كل شهر ليشفيهم .

وكان اعتماد هؤلاء النقباء على كتب مقدسة تعد إنجيل النحلة الأورفية .

وإليك عقيدة النحلة الأورفية كما ترويها الأساطير :

فى البدء كان الزمان ، وهو المبدأ الأول وكان الزمان وحشاً مخيفاً فى هيئة ثعبان له ثلاثة رءوس ، رأس ثور ورأس أسد ووجه إله بينهما . ونشأت معه الضرورة وهى قانون القضاء والقدر الذى يسيطر على الكون بأسره ويضم أطرافه . ثم أنجب الزمان : الأثير والعماء والظلام . وبشكل الزمان بيضة فى الأثير فتفتح ويخرج منها النور ، وهو أول إله أنجبه الزمان .

ومن أسماء النور أو صفاته : زيوس ، وديونيسوس وإيروس ، وبان ، وميتس ، وإريكبايوس .

ثم أنجب النور ابنة هى الليل ، نقيضه وشريكه ، ثم اتحدا فأنجبا الأرض والسماء . واتحدت الأرض والسماء فخلفتا ثلاث بنات وستة بنين . وعلمت السماء أن أبناءها سوف يقضون عليها فألقت بهم فى نهر تارتارس . وغضبت الأرض فأنجبت التيتان ، وهم مردة وشياطين ، وكرونوس ، وريا ، وأوسيانوس وتيث

وتغلب كرونوس فصرع أباه أورانوس (السماء) ، وتزوج أخته ريا . فلما أنجبت ابتلع أبناءه حتى لا يخلفوه فى البأس والقوة .

غير أن زيوس نجا بفضل ما قدمته ريا من مساعدة ؛ إذ ألقمت أورانوس حجراً بدلا من الطفل المولود ، الذى أرسلته إلى كريت حيث كفله الكوريتس ، حتى إذا بلغ أشده ابتلع النور فأخذ عنه القوة و« أصبح البدء والوسط والنهاية لكل شئ » .

ثم شرع زيوس يرتب أمور الكون ، فتزوج ريا فأنجب منها برسيفونى . ثم اغتصب زيوس ابنته فحملت منه ديونيسوس . واستطاع التيتان أن ينزعوا الطفل من أيدى حراسه ، ثم مزقوه إرباً إرباً وأكلوا لحمه . ولما علم زيوس بهذه الجريمة أنزل غضبه على التيتان فأبادهم بأن سلط عليهم الرعد والبرق . وأعاد الطفل إلى الحياة فأصبح ديونيسوس هذا إله الأورفية . ولد ثلاث مرات : كان موجوداً من قبل فى النور ، وهو ابن برسيفونى ، وأعاده زيوس إلى الحياة .

ثم جمع زيوس رماد التيتان وخلق منه الانسان ، فكان بذلك صاحب طبيعتين :

طبيعة الاثم أو الخطيئة ورثها عن التيتان ، وطبيعة إلهية أخذها عن ديونيسوس الذى أكل التيتان لحمه .

وترتب النحلة الأورفية على هذا التصور للالهة والكون نظرية تخص طبيعة الانسان ومصيره . فالنفس تتميز تماماً عن الجسد . لأن البدن ، وهو العنصر التيتانى ، سجن أو قبر للنفس . وغاية الحياة فى النحلة الأورفية أن تخلص نحو العنصر الالهى ، بأن تحفظ البدن فى حال من الطهارة ما أمكن إلى ذلك سبيلا حتى يحين الوقت الذى تنطلق فيه النفس من عقالها ، وتكتسب حريتها .

وكانوا يعتقدون أن اتصال النفس بالبدن هو عقاب لاثم قديم ، للخطيئة الأولى التى ارتكبها الجنس البشرى ، ونعنى بها : تذوق التيتان لحم ديونيسوس ، ومن التيتان نشأ الانسان .

ولما كان البدن وما فيه من شهوات هو منبع الشر ، فينبغى على الأورفى أن يكون زاهداً ، ويجب عليه ألا يأكل لحم الحيوا أو يشارك فى الذبح وإراقة الدماء .

ويجب على النفس أن تبقى مع البدن حتى يستكمل الانسان مدة العقوبة المفروضة عليه بعد ارتكاب الخطيئة الأولى .

وعلى النفس فى أثناء اتصالها بالبدن أن تتبع قواعد خاصة فى الطعام والشراب والراحة ، وأن تخضع لعبادات منظمة تجرى على يد الكاهن . ونحن نجهل هذه العبادات أو المراسيم ، لأن الأورفية كانت من الديانات الغامضة السرية . وأكبر الظن أنهم كانوا يقيمون نوعاً من العبادة الجمعية تجرى فيها الأدعية والتراتيل ثم يقصون الأسطورة الأورفية وما جرى فيها للالهة ، وديونيسوس بوجه خاص . فاذا اتبع المريد هذه العبادات ، وآمن بها ، فقد يصل إلى السعادة الدائمة الأبدية فى العالم الآخر ، وذلك عند ما يتخلص من البدن ويلحق بالصالحين . أما أولئك الذين يعيشون حياة الفسق والفجور فان عقابهم أبدى شديد ، إذ يلقون فى الوحل والطين وبئس المصير .

ويبدو أن صورة هذه الحياة السعيدة تتخذ فى بعض الأحيان صبغة مادية ، على العكس من حياة الزهد المطلوبة فى هذه الحياة الدنيا . فنحن نجد أديمانت فى جمهورية أفلاطون يتهم موزايس وابنه بأنهما يجعلان الحياة الطيبة ليست شيئاً آخر إلا الطعام والشراب الأبديان . أما مقر الروح الأخير فيصفونه بأنه فى « جزر السعادة »، حيث يعيش القديسون فى نعيم مقيم كالآلهة . وهو وصف يفسح المجال للمادية كما يفسح المجال للتأويل الشعرى .

وقد عثر العلماء فى مقابر إيطاليا وكريت على ألواح ذهبية سطرت فيها أبيات من الشعر ، وكانت توضع مع الميت فى القبر لترشده إلى الطريق الصحيح . ذلك أن النفس عند ما تفارق البدن بعد الموت لا تبلغ مقرها فى الحال بل تسيح فى العالم السفلى . يروى أن النفس سوف تذهب إلى ينبوعين بجانب أبهاء زيوس ، أحدهما إلى اليسار . وهذا الينبوع ينبغى تجنبه لأنه « ماء النسيان » تشربه الأنفس التى سوف تعود إلى هذه الدنيا . أما الينبوع الذى إلى اليمين ، وفيه « ماء الذاكرة » الذى يجب أن تشرب منه النفس ، وإلى جانبه حراس تتوجه إليهم النفس ، ليصلوا بينها وبين الآلهة ، قائلة فى دعائها : « إنى ابنة الأرض والسماء ، إنى أموت عطشاً ، فهب لى ماء زلالا من بحيرة الذاكرة » . وعندئذ يمنح الحراس النفس ماء الينبوع الالهى فترقى إلى مرتبة الابطال .

وقبل أن تبلغ النفس مقرها الأخير تقف

بين يدى برسيفونى وإلى جانبها عدد من الآلهة منهم زيوس وديونيسوس ، فتلتمس العودة إلى جنسها السعيد الذى كانت تنتسب إليه ، والذى طردت منه بالقضاء بعد أن ارتكب التيتان الخطيئة ، فسلط عليهم زيوس الرعد والبرق ، ثم جمع رمادهم وخلق منه البشر .

فالنفس تلتمس الآن ، وقد تطهرت ، من برسيفونى أن ترق لها وترسلها إلى مقر الأبرار الأطهار . لقد خرجت النفس من دائرة التناسخ ، وخطت نحو النعيم ، وفرت من أحضان الجحيم . فاذا كان الجواب ملائماً ترفع النفس إلى درجة الآلهة .

ظلت تعاليم الأورفية الباطنة سرا محجوباً إلا عن المريدين ، كسائر الأديان السرية ، إذ كان أصحاب هذه النحلة يصطنعون لكتمان أسرارهم لغة رمزية لايفهمها إلا التابعون ، وتحتاج إلى شرح وتأويل ؛ إلى أن ظهرت فى عصور متأخرة معاجم تكشف أسرارهم ، وذلك على يد كلنت الاسكندرى فى القرن الثالث بعد الميلاد ، إذ فسر قصيدة أورفية . فلما ألقى الضوء على النحلة الأورفية اتضح أثرها البالغ فى الفلسفة اليونانية القديمة ، وفى كثير من العقائد التى لا تزال جارية حتى اليوم واحتفظت به الانسانية فيما احتفظت من تراث الفكر .

وأكبر الظن أن فيثاغورس وفرقته أخذوا القول بالتناسخ ، والعمل بالزهد، والابتعاد عن أكل اللحم وذبح الحيوان عن الأورفية .

ويتبعهم أفلاطون فى التمييز بين النفس والبدن . وكثيراً ما يقتبس من قصائدهم أبياتاً ، ولو أنه لا يذكرهم صراحة إذ يقول عنهم المؤلهة الأقدمون . ولا ريب فى أن احتقاره للبدن ولعالم الحواس لا يخلو من التأثر بالنظرة الأورفية للانسان والنفس ، ومن أنها اتصلت على كره منها بالبدن وهو مصدر الشر والآثام . وفى تطهير البدن وإماتة الشهوات طريق إلى الخلود .

وقد سرت عن أفلاطون نظريته فى النفس إلى الشيخ الرئيس ابن سينا فقال فى قصيدته المشهورة :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنع

أحمد فؤاد الأهوانى